

حديث الكواهي

رجاء. . .

-٢-

مولاي،

ولم يألم المصريون في هذه الأيام الثقيلة لشيء كما ألموا هذا التناقض الغريب الذي يحسونه فيتأذون به أشد الأذى، ويحزنون له أعظم الحزن، وتثور ضمائرهم إنكاراً له، وسخطاً عليه، وذلك حين يقرأون ما تذيعه الصحف الإنجليزية من جهة وما تذيعه الصحف المصرية من جهة أخرى. فأما الصحف الإنجليزية فتذيع بإيعاز من وزارة الخارجية مرة وبغير إيعاز مرة أخرى، ولكنها تذيع على كل حال، أن الإنجليز يرون أن رأي المصري قد نضج، وأن إرضاء الشعب المصري قد آن أوانه وأصبح شيئاً لا بد منه. وأنهم إنما يقفون موقفهم الذي يقفونه الآن دفاعاً عن مصالح الأجانب من ناحية، ورغبة في إرضاء الشعب المصري من ناحية أخرى.

وأما الصحف المصرية فتذيع نقلاً عن رئيس مجلس الشيوخ الحاضر يوماً ونقلاً عن رئيس مجلس النواب الحاضر يوماً آخر، أن جلالتكم تحرصون حرصاً شديداً على نظام الحكم الذي أحدثه

صدقني باشا، وتأبون إباءً شديداً أن يمس هذا النظام بتغيير أو
تبديل. والشعب المصري ينكر هذا النظام ويرفضه اليوم كما
أنكره ورفضه أمس وكما أنه سينكره ويرفضه دائماً. قد احتمل
في سبيل ذلك آلاماً ثقالاً وضحى في سبيل ذلك بكثير من الأنفس
والأموال، ومن المنافع والمرافق، وهو مستعد دائماً للمضي في
هذه التضحية، مهما تثقل، ومهما تكن نتائجها وآثارها.

فالشعب المصري يألّم أشد الألم حين يرى هذين الأمرين
المتناقضين، حين يرى الإنجليز يظهرهم التودد له والاعتراف به
والتقرب إليه، وحين يرى بعض المسئولين وغير المسئولين، من
أنصار هذا النظام القائم يذيعون في الشعب غير متحرجين ولا
متحفظين ولا خائفين التكذيب فضلاً عن أن يخافوا العقاب، أن
جلالتكم تحرصون على نظام لا يحبه الشعب، وتؤيدون عهداً قد
كرهه الشعب، وتأبون أن تأذنوا بافتتاح عهد لا يريد الشعب به
بديلاً.

والمصريون يعلمون فيما بينهم وبين أنفسهم أن ما تذيعه أنصار
هذا النظام القائم كذب، وإن ما يحملونه على جلالتكم مختلق
منحول، ولكنهم على ذلك يألّمون لأنهم يكرهون أن يضاف إلى
ملك مصر ما لا ينبغي أن يضاف إليه، وأن يحمل على ملك مصر
ما لا ينبغي أن يحمل عليه، وأن يكون الذين يضيفون هذا
ويحملونه من الذين تأخذهم مراكزهم بالصدق، وتضطربهم

مناصبهم إلى الأمانة والإخلاص، وتحرم عليهم مناصبهم أن يسعوا بين الشعب ومليكة بألوان السوء وضروب الفساد.

والمصريون يعتقدون مؤمنين أن المصدر الذي ينبغي أن يأتيهم منه الخير، وينالهم منه البر، ويبلغهم منه الرضي، إنما هو العرش المصري الذي أقاموه بسواعدهم، وأحاطوه بمودتهم وقلوبهم، وفدوه وما يزالون مستعدين لفدائه بأنفسهم وأموالهم. وهم يعتقدون مؤمنين أن العرش يجب أن يكون أسبق إلى إرضائهم، وأحرص على تحقيق مصالحهم، وأرغب في احترام إرادتهم والاعتراف بها من الإنجليز، لأن العرش منهم وهم منه، ولأن العرش لهم وهم له، ولأن الإنجليز أجانب وخصوم على كل حال، قد تحسن الصلة بيننا وبينهم وقد تسوء، ولكن الصلة بيننا وبين العرش، لا يمكن ولا ينبغي إلا أن تكون حسنة دائماً.

فالمصريون يرغبون إلى جلالته في أن تتفضلوا فتأمروا بكف هؤلاء الساعين عن سعيهم، ووقف السنة السوء عن أن تضيع السوء، ومنع المفسدين بين الشعب والعرش، عن أن يفسدوا بين الشعب والعرش.

والمصريون يعلمون حق العلم أن مليكهم مثقف أرقى الثقافة، يمتاز بالبصيرة النافذة والحلم الراجح والنظر البعيد، وأنه يعرف تاريخ مصر الحديثة حق المعرفة وأنه بصير بحياة الشعوب، وما يختلف عليها من الأطوار، وأنه عليم بأن الشعوب لا ترجع إلى

وراء، وإنما تسعى إلى أمام، وبأن الشعب المصري الذى ثار منذ أكثر من نصف قرن يبتغي الإصلاح والدستور، والذى احتمل في سبيل الإصلاح والدستور ما احتمل منذ الثورة الأولى إلى أن انقضت الحرب الكبرى وإلى أن كانت الثورة الثانية، وإلى أن اعترف الإنجليز له بالاستقلال، وآمنوا له بحقه في الإصلاح والدستور، هذا الشعب لا يستطيع أن يرجع إلى وراء، ولا أن يقبل حكماً يقوم على غير إرادته، ويصرف على غير هواه، ويعتمد على غير المسؤولين من رجال القصر، وعلى المسؤولين من الذين لا يقدرّون التبعات، ولا يحسنون النهوض بالواجب، ولا يقدمون إرادة الشعب على إرادة الفرد، ولا يؤثرون رضي الشعب، على رضي أصحاب الجاه والسلطان.

نعم يا مولاي لا يستطيع المصريون مهما تسلطت عليهم المحن، ومهما تكتنفهم الخطوب، ومهما يصب عليهم من الهول أن ينكروا أنفسهم، أو يجحدوا ماضيهم، أو ينسوا تضحياتهم، أو ينزلوا عن بعض ما كسبوا من الحق، أو يقصروا في طلب ما بقي لهم من الحق. هم يؤمنون بأنهم قد خلقوا ليعيشوا كراماً أحراراً وهم مصممون على أن يعيشوا كراماً أحراراً. وهم لا يستطيعون من أجل ذلك أن يذعنوا لرجل كبير مهما يكن وإن كان الإبراشي باشا. ولا أن يخضعوا لوزير خطير مهما يكن وإن كان صدقي باشا أو عبد الفتاح يحيى باشا، وأن لا يفهموا رجال الدولة إلا على أنهم خدام الشعب، وأن لا يفهموا رجال القصر إلا على أنهم خدام الملك:

وهم يأبون أشد الإباء أن يطغى رجال القصر حتى يدخلوا فيما ليس لهم أن يدخلوا فيه. وحتى يسخروا رجال الدولة لغير سلطان الشعب، ومنافعه الخالصة الواضحة. أعلنوا ذلك منذ كان الانقلاب، بل أعلنوا ذلك في أوقات مختلفة منذ كانت الثورة وهم يعلنون ذلك الآن، وهم مستعدون لإعلانه غداً وبعد غد، ولكنهم يرغبون إلى جلالته في أن تغفهم من ذلك، وفي أن تقفوا رجال القصر عند خدمة القصر، وفي أن تخلوا بين رجال الدولة ومصالح الدولة، وفي أن تخلوا بين الشعب وسلطان الشعب.

وليس بين المصريين يا مولاي مثقف عظيم الخطر أو ضئيلة، رفيع المكانة أو وضيعها، إلا هو مؤمن أشد الإيمان بأن عصر الطغيان قد انقضى ولا يمكن أن يعود، وبأن الأمم لا تحكم إلا بالنظام الذى تريده وترضاه، وعلى النحو الذى تريده وترضاه، وبأن نظم الحكم لا تمنح للشعوب، ولا يهبط الوحي بها من السماء، وإنما تنشئها الشعوب إنشاءً، وتقرها الشعوب إقراراً، وتغيرها الشعوب إن أرادت تغييرها وتمنع الشعوب ما لا نريد من التعديل والإصلاح عنها وحدها يصدر هذا كله، وإليها وحدها يرد هذا كله، ليس لأحد أن يفرض عليها من ذلك ما لا تريد مهما يكن، ومهما تؤيده القوة وتواتيه الظروف.

آمن المصريون بهذا كله في هذا العصر، كما آمن الأوروبيون بهذا كله قبل هذا العصر، ولن ينزع هذا الإيمان من قلوب المصريين

لأنهم كما قلت يسعون إلى أمام، ولا يرجعون إلى وراء. وهم يرون في غير تردد ولا شك ولا امتراء أن صدقي باشا قد كان متمرداً حين وثب إلى الحكم، وقد كان متمرداً حين غير الدستور في غير احترام لأصول الدستور، وهم يرغبون إلى جلالتك في أن تتفضلوا فتأمروا بإصلاح ما أفسده صدقي باشا وأصحابه وفي أن تتفضلوا فتأمروا بمحو آثار هذا التمرد على حقوق الشعب، ورفع أوزار هذا العدوان مع سلطان الأمة وفي أن تتفضلوا فتأمروا برجوع الدستور الذي لم يلغ صدقي باشا لأنه لم يكن يملك إلغاءه، وفي أن تتفضلوا فتأمروا برفع هذا النظام القائم الذي لم يستطع صدقي باشا، ولن يستطيع غيره أن يفرضه على الأمة شرعاً، لأن نظم الحكم لا تفرض على الشعوب، وإنما تصدر عن الشعوب.

والمصريون يا مولاي يأسفون أشد الأسف لأن تمرد المتمردين وعبت العابثين وطغيان الطغاة، يفسد على الشعب أموره الداخلية، ويشغله بخصومات كان يحب ألا يشغل بها وألا يضيع فيها وقته وجهده ليفرغ لما بينه وبين الإنجليز من خلاف، وليتوفر على معالجة ما بينه وبين الإنجليز من خصومة، وليجد في تحقيق الاتفاق المصري الإنجليزي الذي يحقق لمصر استقلالها التام.

والمصريون واثقون بأن جلالتك ستعنون بهذا كله. وستتخذون من القرارات الحكيمة، ما يكفل للشعب رضاه وحرية، ويحميه في المستقبل من كل عدوان أو طغيان، ويمكنه من تحقيق هذا

الغرض الأسمى وهو الاستقلال التام - والمصريون وقد ملئت قلوبهم ثقة بذلك وأملأ في ذلك، يرجون ألا ينقضي يوم أو أيام حتى تكون آمالهم حقائق، وحتى يكون رجاؤهم يقيناً. وهم يتمنون لجلالتكم حياة ناعمة سعيدة كلها خير لجلالتكم وللشعب، الذي يرفع إلى جلالتهكم أصدق آيات الحب والإخلاص.

طه حسين

الوادي، ١٢ نوفمبر ١٩٣٤.